André Tosel

Du retour du religieux: Scénarios de la mondialisation

(Paris: Kimé, 2011) 164 p. (Philosophie en Cours)

عودة الديني: سيناريوهات العولمة الثقافية

فيصل دراج(*)

ناقد أدبي.

ـ ١ ـ

بدأ الفكر الأوروبي، منذ الحرب العالمية الأولى، في الربع الأول من القرن العشرين، يتحدث عن أزمة الحضارة الرأسمالية، الأمر الذي أنشأ تياراً فلسفياً يدعى: الرومانسية المعادية للرأسمالية، الذي كان أشهر رموزه الهنغاري جورج لوكاتش في كتابه **نظرية الرواية**. إذ إن عصر التنوير، في شكله الكلاسيكي، قد بشّر بالإنسان الشامل وكونية الفكر الإنساني ووعود الاكتشافات الجغرافية والعلمية وحضارة الآلة... بيد أن ما بدا واعداً أخلف وعوده، مختصراً الإنسان الشامل في «الإنسان الأبيض»، الذي لا يعترف بغير الإنسان الأوروبي، ومختصراً كونية الحضارة الإنسانية في «الاستعمار»، الذي أوكل إلى ذاته «نهب العالم الثالث» وتدمير ثقافات البلدان المستعمَرة. ولعل وعود عصر التنوير الأوروبي، الذي آمن بوحدة العلم والمستقبل، هي التي دعته إلى الإعلان عن حقبة إنسانية جديدة عنوانها: غروب الدين. فأكّد ماركس، وليس بعيداً، لاحقاً، عن ماكس فيبر، أن شفافية الظواهر الطبيعية التي تصدر عن تقدم العلوم، كما زيادة الطاقة الإنسانية التي تشبع حاجات الإنسان، تدفع بالدين إلى «التلاشي»، كما أعلن فريدريك نيتشه عن «موت الله»، حتى بدا الدين جزءاً من مرحلة إنسانية منقضية. غير أن تلك الوعود ما لبثت أن سقطت في الماء، وفي نهاية القرن العشرين.

فقد أدى سقوط الاتحاد السوفياتي و«النهج الاشتراكي»، كما غياب البدائل الاجتماعية، إلى سقوط فكرة التقدم، ولم يعد التاريخ الإنساني يسير مستقيماً إلى عالم النعمة والرخاء، بل أصبح فيه ما يلمح إلى «الكارثة».

وكان على سقوط فكرة التقدم أن تُسقط معها جملة أفكار ملتصقة بها، فلم تعد «العقلانية»، أو «دين العقل»، كما كان يقال،

(*) البريد الإلكتروني: info@azminah.com

معطى مباشراً له شكل البداهة، فذهب «زمن اليقين» وأخذ مكانه زمن الشك والتساؤلات. كما أن «العلمانية»، الوضعية، فقدت بريقها. فبعد «تحرير العالم من سحره»، أي طرد الغامض والميتافيزيقي واللاهوتي، «استعاد العالم سحره القديم»، وبدا أنه بحاجة إلى «قوة غامضة» تقف خارجه وتضبط حركته وتأخذ بيد الإنسان إلى «الطريق القويم»... أما الديمقراطية، شعار «العالم الغربي» الأثير، فلم تعد تقنع الكثيرين، منذ أن ارتبطت بالغزو العسكري وقوة السلاح.

قرأ الفيلسوف الفرنسي أندريه توزيل في كتابه الجديد: **عودة الديني. سيناريوهات العولمة الثقافية**، لا بمعنى عودة المعتقدات الدينية المألوفة فقط، بل عودة الإيمان بـ «الغامض» و«الإلهي»، و«الرمزي المقدس»، كما ظهور تيارات روحية مختلطة ذات أسماء مختلفة مثل «العهد الجديد» و«الطريق المستقيم» والإيمان بالأبراج وعلم النجوم... غير أنه في بحثه هذا وضع «التفسيرات الثقافوية» جانباً، التي تهمش الأسباب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وارتكن إلى مفهوم أساسي هو: العولمة؛ وأضاء أبعادها بخمسين «أطروحة»، لامست تطورها وأبعادها «الكارثية».

فبعد مصطلح «العالم الثالث» الذي أشار، في حقبة سابقة، إلى عالمين متقدمين، ولو بشكل غير متكافئ، رأسمالي واشتراكي، جاء مصطلح «الشمال ـ الجنوب»، حيث الشمال، افتراضياً، يمثِّل عالم الوفرة والديمقراطية، والجنوب عالم الفقر والبطالة والاستبداد. ومع أن سقوط جدار برلين ـ ١٩٨٩ ـ وعد بـ «قرية كونية» لا مكان فيها للعوز والاستبداد، بعد انقضاء «عصر الأيديولوجيات»، فإن النظام الدولي الجديد، والذي لم يكن جديداً على الإطلاق، جاء بعولمة جديدة، لا تبدأ من الإنسان والديمقراطية، بل من «مذهب السوق»، الذي أعطته «الليبرالية الجديدة» صفة المذهب الديني والواقع المقدس الكامل القدرة، الذي يصحح ذاته بذاته ولا يحتاج إلى قوة تصلحه وترمم نقصه.

ـ ٢ ـ

أنتجت العولمة الجديدة في بلدان الجنوب آثاراً مدمرة، فاستولدت رأسمالية متوحشة تحتكر المصادر والاقتصاد والإرادات، وتدفع بطبقات واسعة من الشعب إلى البطالة والهجرة والجوع. لم تبدُ السوق الليبرالية فعلاً اقتصادياً، يدير نفسه بنفسه، بل قوة عنفية تدميرية، سواء ارتكنت إلى الغزو العسكري أم لم ترتكن إليه. أعاد انقسام الشمال - الجنوب إنتاج ذاته، فقسم الجنوب من جديد إلى قلة كوزموبوليتية بطرة، وفئات خاضعة، بعضها شديد الفقر، أخذ في أمريكا اللاتينية نعت «الفئات النافلة»، أو «البشر ـ القمامة»، الذين يزهق الجوع كرامتهم الإنسانية.

وإذا كان «إنسان الجنوب» قد سقط في شراك الحاجة، فإن «إنسان الشمال» وقع في شراك غياب الأمل وانغلاق المستقبل، بسبب الأزمة الاقتصادية المتجددة وغياب البدائل السياسية ـ الاجتماعية، مختزلاً الأمر كله إلى «العمال المهاجرين»، الذين «هربوا» إلى «الغرب» حاملين ثقافة أخرى ومعتقداً دينياً

آخر، وحاملين أيضاً آثار التمييز العنصري الضروري، في بلدان تستغلهم وتقمعهم معاً.

ومثلما أن كل طائفة، في مجتمع مأزوم، لا تصعد وتنتشر إلا في مواجهة طائفة أخرى، تخترعها إن لم تكن موجودة، قادت أزمة المجتمع الرأسمالي، في شروط انحلال العمل السياسي، إلى صعود النزعات الشعبوية، التي تفتش عن «عقيدة ما»، وترى في «العمال المهاجرين» سبباً لأزمتها وتهديداً لهويتها. فبعد أن كانت أوروبا أوروبية خالصة، بمعنى ما، فإن «المسلمين المهاجرين» حملوا إليها قيماً وعادات لا تأتلف مع «الروح الأوروبية». ولهذا أضاف المجتمع الغربي المأزوم إلى هويته الثقافية بعداً رمزياً دينياً، ينفي الهوية الثقافية المغايرة ويحاصرها، مقيماً مسافة شاسعة بين «الأوروبي المتقدم» والمسلم المتخلّف.

وعلى خلاف أزمنة سابقة، كانت فيه لمواطن المجتمع الرأسمالي مراجع جماعية، فإن أزمة الليبرالية، وفي شروط انحلال العمل السياسي، دفعت الفرد إلى التقوقع حول نفسه واللواذ بـ «إيمان ديني» يواجه به القلق والبطالة. فبعد شعارات سياسية ـ أيديولوجية، ارتكنت إلى: الشعب، الأمة، والطبقة العاملة، جاءت رموز جديدة: السوق، المال، المشاريع الاقتصادية، وكل ما ينتج فرداً محاصراً يحتاج إلى «الله»، ويعيد الاعتبار إلى الكنائس القديمة. أعادت هذه التحولات طرح مسألة الهوية، من جديد، فتراجعت الهوية الطبقية، وتقدّمت هوية ثقافية ـ مسيحية في مواجهة هوية أخرى، موضوعية أم مصطنعة، تحيل على الإسلام أو على ما يدل عليه. وفي هذه الشروط، صعدت «قضية الحجاب» في فرنسا ومسألة «بناء مسجد» في هولندا، ورفع الأمران إلى مستوى «الغزو الخارجي» الذي لا يمكن احتماله.

ـ ٣ ـ

وإذا كانت العقود السابقة قد قادت إلى موضوع «وحدة الأديان»، كما يقول هبرماس، إذ في الدين قوة تؤالف بين البشر، بمعزل عن الثقافات والعروق، فإن أيديولوجيا السوق، كما كراهية الغرباء، كانت في أساس نهوض هوية ثقافية ـ دينية ـ عنصرية، مجلاها صعود الحركات الشعبوية (القريبة من الفاشية) في أكثر من بلد أوروبي. عبّر هذا التحوّل، الذي تتداخل فيه الصراعات الاجتماعية والصراعات الهوياتية، عن تقهقر في الوعي السياسي ـ الاجتماعي، فعوضاً من التعرّف الفعلي بأسباب أزمة المجتمع، المرتبطة بالسياسات الليبرالية، بدا «الآخر المسلم»، سبب هذه الأزمة ومصدرها، حتى بدا طرد الغرباء شعاراً سياسياً «وطنياً» ومدخلاً إلى استعادة «الأمن الاجتماعي» المفقود. ولعل موضوع «الغرباء» هو الذي يطرح موضوع الداخل/الخارج في تشكيل «الهوية الوطنية»، ذلك أن «ثقافة الحجاب» شكلت عنصراً خارجياً ضاغطاً، أزاح «الداخل» عن موضعه القديم، وجعله يتعامل مع «عنصر خارجي» لم يكن يتوقعه، من دون الاعتراف بأن «الداخل الرأسمالي»، في شكله الليبرالي المتوحش، شكّل علاقة داخلية في «الخارج» ودفع سكانه إلى الهجرة وإلى «العمل الأسود»، الذي يلبي حاجات المجتمع الرأسمالي، على أية حال، ودفعهم أيضاً إلى اللواذ برموزهم الدينية.

كان الفرنسي مارسيل غوشيه، كما غيره، قد تعرّض في أعماله لـ «العلاقة بين الدين والسياسة»، ووضع المعتقد الديني في مجتمع ديمقراطي، معتبراً أن الديمقراطية «تُعلْمن» الدين، وتحاصر إمكانية التعصب في التعامل معه. ويبدو أن «غوشيه» قد طرح المسألة وهو ينظر إلى مجتمع رأسمالي متحرر، نسبياً، من أزمته، دون أن يدري أن عمق الأزمة الرأسمالية تزعزع الديمقراطية وتنتج «وعياً متعصباً» يخترع «دين الآخر»، ويدفع بهذا «الآخر» إلى وعي متعصب مقابل. فـ «الحقائق الدينية» تتعيّن بالوعي الذي يتعامل معها، قبل أن تتعيّن بعناصرها الداخلية المحايثة لها.

لم ينسَ أندريه توزيل أن يتوقف أمام الدور الإيجابي «الممكن» للدين، مستعيداً أعمال الفيلسوف الماركسي إرنست بلوخ، الذي رأى في الدين قوة محرّضة على العدالة والإصلاح، في حال توفر الشروط السياسية والاجتماعية، رافضاً اختصار الدين إلى دور تضليلي سلطوي المنطلق. يتلامح في هذا المنظور «لاهوت التحرير»، الذي عرفته أمريكا اللاتينية، والذي حاول أن يوحّد بين الدعوة إلى الثورة والتعاليم المسيحية، مبتعداً عن «الإيمان المجرد»، ومعطياً تأويلاً سياسياً للنصوص الدينية، ينقد الاستبداد والاستغلال، وينادي بمنظور للعالم، يصالح بين الدين وبعض المقولات الماركسية، وينطلق من الإنسان المضطَهَد، لا من الإنسان المؤمن أو الكافر.

أضاء توزيل في كتابه **دلالات العولمة ونتائجها**، وقرأ «مجتمعاً كونياً مأزوماً»، يبحث عن خَلاصه ملتمساً أدوات كثيرة، يحتل فيها الدين، في الظروف الراهنة، موقعاً متميزاً، بسبب وعي «قلق» لا يعي ـ موضوعياً ـ معنى الدين ولا معنى الرأسمالية السوق. ربما كانت هذه الأزمة، بعد سقوط البدائل الثورية و«يقين التقدم»، هي التي دعت بعض الماركسيين إلى مراجعة مواقفهم، وإلى الحديث عن دور «يد الله» في صناعة التاريخ.

يدفع هذا الكتاب، في وضوحه وكثافته النظرية اللافتة، القارئ العربي إلى طرح سؤالين: هل العولمة الجديدة وحدها، التي تخترق «السوق العربية» بأشكال مختلفة، هي السبب «الوحيد» في صعود الحركات الدينية في الوطن العربي؟ أم أن القهر السلطوي المتراكم منذ عقود، هو السبب المسيطر لولادة حركات تمزج بين المقدس والنص الديني و«الفتاوى اللاعقلانية»؟ وما هو شكل الإصلاح الاجتماعي، وهو متعدد المستويات، القادر على توليد وعي ديني، لا يبدأ من الهوية الدينية الضيقة ويكتفي بها ـ في حالات العماء ـ بل من هوية إنسانية ووطنية ـ قومية، تبدأ من الحاجات العملية، ومن الإنسان، كما هو، قبل أن تعامله بثنائية الكفر والإيمان المجردة وبـ «العمومية الطائفية»، التي تؤازر ثقافة الدمار؟ فهل يمكن تفسير الوعي الطائفي، المتصاعد في أكثر من مكان في الوطن العربي، بـ «السوق الليبرالية» وحدها، أم أن هناك «معادلات سلطوية» توقظ الوعي الطائفي وتستعمله؟ □